إشكالية المعنى في ضوء النظرية السّياقية

د.حبيب بوزوادة
جامعة معسكر - الجزائر
habibbouzouada@gmail.com

ملخص البحث :

يعتبر المعنى من القضايا الأكثر أهمية في الكلام البشري، فهو الهدف المقصود من أيّ نظام لغويّ، أمّا المستويات اللسانية الأخرى (الصوتية والصرفية والتركيبية) فهي حاملة للمعنى، ووسيلة أساسية من وسائل التبليغ، ونظراً لطبيعة المعنى التي تمتاز بالغموض والتغيّر والتبدّل، كانت الحاجة ماسّة لدراسة هذا المكوّن المهمّ من مكوّنات اللسان البشريّ؛ فظهر بسبب ذلك علم الدّلالة، الذي ناقش قضايا المعنى بشبكة من الآليات المعرفية التي سمحت بالحفر في المعنى والوصول إلى نتائج أكثر دقّة وموضوعية.

ونظراً لحيوية (المعنى)، تجاذبته حقول معرفية أخرى، كالسيميائية والتداولية وغيرهما، غير أنّ هذه المجالات المعرفية اتّفقت على اعتبار السياق الوسيلة المفضّلة للكشف عن الدّلالات الخفية في الخطاب البشريّ، حتى وإن كان الحديث عنه تحت أسماء أخرى، كالمقام، والموقف، والقرينة، والمؤشّر.. لكنّها جميعاً تشير إلى أهميّة ظروف التخاطب في صياغة الخطاب، وفهم معانيه وكشف دلالاته.

وسأحاول في ورقتي أن أسلّط الضوء على السياق ضمن ثلاثة مقاربات؛ المقاربة التراثية، التي تستلهم من جهود اللغويين العرب، وعلماء أصول الفقه، ومقاربة علماء اللسانيات (نظرية فيرث السياقية)، والمقاربة التداولية التي أعطت أهمية أكبر لقضايا السياق ضمن بنية الخطاب وآلية استكشافه.

الكلمات المفاتيح :

المعنى، الدّلالة، اللسانيات، السياق، النظرية السياقية، التداولية

The question of meaning within the contextual theory

Dr.Habib Bouzouada
Mascara University-Alegria
habibbouzouada@gmail.com

Abstract :

Meaning is a main issue in human speech. It is the intended purpose of any linguistic system; meanwhile the other linguistic levels (phonetic, morphological and syntactic ones) are bearings of meaning, and a basic means of communication. Because of the ambiguous and changing nature of meaning, there was a strong need to study this important component of the human tongue, and that have leaded to the emergence of Semantics, which has discussed the issues of meaning with a set of cognitive mechanisms that allowed searching in meaning and reach more accurate and objective results.

Because of the vitality of the (meaning), it has been attracted by other disciplines , such as semiotics, pragmatics etc… . However, these cognitive fields have agreed on considering the context as the best means to discover the connotations in the human discourse, even if it is named differently as situation, position, proof, index ect .. But they all indicate the importance of the conditions of communication in the framing a speech , and understanding of the its meaning and significance.

In this paper is an attempt to highlight the context within three approaches: the traditional one which inspired the efforts of the old Arab linguists, and scholars of Islamic Principles of jurisprudence. Then the linguistic approach especially the Firth approach, and finally the pragmatic approach which interested strongly in the context issues in framing and analyzing discourse .

Key words :

Meaning- significance - Linguistics- Context- Contextual Theory- Pragmatics

تمهيد:

يعتبر المعنى (Meaning) جوهر عملية التخاطب، فهو الحقيقة التي يهدف المتكلّمون إلى إبلاغها، ويهدف المخاطَبون لاستيعابها وفهمها، ومع ذلك فإنّ الاهتمام به لم يكن كبيراً في الدّراسات اللغوية القديمة، فقد ظلّت الأولوية للبنية الشكلية للخطاب اللغوي على حساب بنيته الدّلالية، فشهدت الحضارات القديمة اهتماماً بالجوانب الصوتية للكلمة، وبصيغها الصرفية، أو بالجوانب التركيبية للكلام، أمّا الحديث عن المعنى فقد كان يأتي بالتبعية في الاختصاصات المختلفة، كتفسير نصوص الدّين، أو الفلسفة ونحوهما.

غير أنّ العالم اللغوي الفرنسي ميشال بريال (M.Bréal) أطلق سنة 1883م دعوة للاهتمام بالجوانب الدّلالية للخطاب اللغوي، وأعلن من خلال كتابه (Essai de Sémantique) عن تأسيس علم الدّلالة (Semantic)، بغرض البحث في ماهية المعنى، وآليات تشكّله، وطرق تحوّله، قائلا: «إنّ الدراسة التي ندعو إليها القارئ هي من نوعٍ حديث للغاية بحيث لم تسمّ بعد، نعم لقد اهتمّ معظم اللسانيين بجسم وشكل الكلمات، وما انتبهوا قطّ إلى القوانين التي تنتظم تغير المعاني، وانتقاء العبارات الجديدة والوقوف على تاريخ ميلادها ووفاتها، وبما أن هذه الدّراسة تستحق اسماً خاصاً بها، فإنّنا نطلق عليها اسم (Semantic) للدلالة على علم المعاني»[1]، وبرغم أهمية ما دعا إليه بريال إلاّ انه لم يلق الصدى والترحيب المطلوبين، فقد تأخّر ذيوع أفكاره إلى سنة 1923م عندما أصدر عالما اللغة الإنجليزيين (أوجدن وريتشاردز) كتابهما معنى المعنى (The Meaning of Meaning).

(1) Le Roy Maurice: les grands courants de la linguistique modern p46 نقلا عن عبد الجليل منقور: علم الدّلالة أصوله ومباحثه ص20

وبذيوع محاضرات فرديناند دوسوسير (De Saussure) في القرن العشرين جرى إعادة ترتيب علوم اللغة، فتمّت صياغة قواعد المعرفة اللغوية تحت مصطلح اللسانيات (Linguistic)، وأصبح علم الدّلالة هو المستوى الرابع من مستويات هذا العلم الوليد، بالإضافة إلى المستوى الصوتي، والمستوى الصرفي، والمستوى التركيبي.

هل المعنى مشكلة؟

يعتبر المعنى من المفاهيم الزئبقية، فهو غير قابل للتكميم، ولا يمكن القبض عليه، ولا قياسه، أو تثبيته، إنّه سريع التفلّت، فما يزال النّاس مختلفين في مستويات إدراكه، وطرق الوصول إليه، وآليات إنتاجه، ومن هنا تأتي حيوية هذا المفهوم، فمن هذه الدينامية تولّد الاختلاف، ومن الاختلاف انبثقت الرؤى والأفكار، وتشكّلت الفلسفات والعلوم.

لقد فكّك محمد مفتاح مفهوم المعنى، وحاول أن يحصي مستوياته، انطلاقاً من معطيات السيميائيات مستعيناً باجتهادات علماء الأصول، فوجد بأنّ المعنى طبقات، كطبقات القشرة الأرضية، لكلّ طبقة ميزات وخصائص محدّدة، وهذه المستويات تقع بين قطبين أساسيين وهما منتهى الوضوح ومنتهى الغموض، وعليه تحدّث عن إمكانية تصنيف النّصوص تبعاً لدرجة قربها أو بعدها عن هذين القطبين، فقال: «يخطئ من يسلّم بأنّ اللغة شفّافة، وكذلك يخطئ من يعتبر أنّ اللغة عَمَاء وأنّ الخطاب حجاب، وتجنّباً للأخذ بأحد الطّرفين دون سواه، فإنّنا نقترح درجات للدّليل من حيث طبيعة معناه»[2]. وتبعاً لهذا التوجيه تحدّث مفتاح عن الدّرجات التالية من النّصوص، وهي: النّص الواضح، النّص البيّن، النّص الظاهر، النّص المحتمل، النّص الممكن، النّص العميّ[3].

(2) محمد مفتاح: المفاهيم معالم ص147.
(3) انظر شرح هذه المصطلحات في المرجع السابق ص- 147 148

أمّا في الثقافة العربية القديمة فإنّ العلاقة بين اللفظ والمعنى كانت دائماً إشكالية، حصرها علماء المنطق في خمس علاقات، كما نبّه على ذلك الأخضريّ في منظومة السلّم المرونق[1]:

وَنِسْبَــةُ الألْفَــاظِ لِلْمَعَــانِــي
خَمْسَــةُ أَقْسَــامٍ بِـلا نُقْصَـانِ
تَـواطُـؤٌ تَشَاكُــكٌ تَخَــالُــفُ
وَالاشْتِـراكُ عَكْسُــهُ التّـَرادُفُ

فالمفـردة قـد تـدلّ علـى معناهـا بصـورة مباشرة تشمل كلّ أفراده، وهي التواطؤ، كدلالة «الإنسان» على زيد وعمـرو وبكر، أو تدلّ على معنـى يتفاوت الأفراد في الاتصاف به، كدلالة «الضوء» التي تتفاوت بين (الشمس، والقمر، والسّراج)، وهو التشاكك، أمّا الاشتراك فاتحاد اللفـظ واختـلاف المعنـى، كدلالـة «العـين» علـى العين الباصـرة، وعين المـاء، وغيرهمـا. والتّـرادف هو دلالة اللفظين علـى المعنى الواحد، ويـراد بالتخالف اختلاف الألفاظ لاختلاف المعاني، وهو أكثر مفردات اللغة.

كمـا تحدّث المناطقة عـن دلالات المطابقة والتضمن والالتزام، باعتبارها الأشكال الضابطة لعلاقة اللفظ مع معناه، لأنّ الكلمة قد تدلّ على تمام المعنى (المطابقة)، أو علـى بعضه (التضمّن)، أو على معنى مصاحبٍ له عقلاً أو عرفاً كدّلالة الحاجب على العين (الالتزام)[2].

ويحصـر اللغويـون العلاقات النّاظمة بـين الكلمات ومعانيهـا ضمـن ثلاثة أطر، وهي التبايـن، والاشتراك، والـترادف، قـال أحمد مختار عمـر: «ألفـاظ اللغة من حيث دلالاتها ثلاثة أنواع:

أ-المتباين: وهو أكـثر اللغة، وذلك أن يدلّ اللفظ الواحد على معنى واحد.

ب-المشـترك اللفظي: وهـو أن يدلّ اللفـظ الواحد على أكثر من معنى.

ج-المـترادف: وهـو أن يـدلّ أكثر مـن لفظ علـى معنى واحد»[3].

أمّـا علمـاء أصول الفقـه فقد امتـازت نظرتهم إلى المعنـى بالكثير مـن الحيوية والدّقة، فهـم يتحدّثون عن قطبـين أساسيـين وهمـا (المحكم والمتشابـه) اللـذان يمثـلان منتهى البيان، ومنتهى الغموض، قال السّيوطي: «المحكم لا تتوقف معرفته على البيان، والمتشابه لا يرجى بيانه»[4]، وبين هذين القطبين هناك مستويات أخرى من المعاني متدرّجة في درجة وضوحها وبيانها، قال الشريف التلمساني: «اعلم أنّ اللفـظ إمّا أن يحتمل معنيين، أو لا يحتمـل إلاّ معنى واحداً، فإن لم يحتمل بالوضع إلاّ معنى واحدا فهو (النّـص)، وإن احتمل معنيين؛ فإمّا أن يكون راجحـا في أحد المعنيين، أو لا يكـون راجحا، فإن لم يكن راجحاً في أحد المعنيين فهو (المجمل)، وهو غير المتضح الدّلالـة. وإن كان راجحاً في أحـد المعنيين؛ فإمّا أن يكون رجحانه من جهة اللفظ، أو من جهة دليل منفصل، فإذا كان من جهـة اللفظ فهو (الظّاهـر)، وإن كان من جهة دليل منفصل فهو (المؤوّل)، فخرج من هذا أنّ اللفظ إمّا نصٌّ، وإمّا مجملٌ، وإمّا ظاهرٌ، وإمّا مؤوّل»[5].

وضمـن هـذا الإطـار الإشـكالي يقـع التضـارب في المعاني، والتباين في الدّلالات للمفردة الواحدة، وللخطاب الواحد، وهو ما دفع المشتغلين بعلم الدّلالة وقضايا المعنى إلى البحث عن السبل الكفيلة بإزاحة الغموض، والوصول إلى المعـاني الحقيقيـة للخطـاب اللغويّ، فظهـرت تبعاً لذلـك العديد من النظريـات ذات الصّلة، مثل النظرية الإشاريـة، والنّظريـة التصوّريـة، والنظريـة السلوكية،

(1) الأخضري: شرح السلّم ص67.
(2) حبيب بوزوادة: علم الدّلالة، التأصيل والتفصيل ص84.
(3) علم الدّلالة ص145.
(4) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ص300.
(5) الشريف التلمساني: مفتاح الوصول ص47.

ونظريـة الحقول الدّلالية، والنظريـة التوليدية، وغيرها مـن النّظريـات، التي قدّمـت الكثـير للتحليـل اللغوي، وأمّـدت الدّارسين بالعديد مـن المنهاجيات التي سمحت بالاقـتراب العلمي من قضايا المعنـى، وحاولت أن تبحث في آليات تشكّل المعنى، وسبل الوصول إليه.

غـير أنّ النظريـة التـي أثبتـت كفاءتهـا في تفسـير الدّلالات وتوضيـح المعاني هي النظريـة السياقية. لأنّها جعلـت همّها هـو كشـف المعنـى، والتعرّف عليـه ضمن الاستعمالات اللغوية المختلفة. وهو ما سنحاول استعراضه لاحقاً في هذه الدّراسة.

مفهوم السّياق:

جـاء في لسان العـرب: ساق الإبل وغيرهـا، يسوقها سوقـاً.. وقد انساقـت وتساوقت الإبل تساوقـاً: تتابعت، وسـاق إليهـا الصّـداق والمهر سياقـاً وأساقـه، وإن كان دراهـم أو دنانير، لأنّ أصل الصّـداق عند العرب الإبلُ، وهـي التي تُسـاق، فاستعمل ذلـك في الدّرهـم والدّينار وغيرهما..

ومعظـم المعاجـم العربيـة تحصر دلالـة السّياق في التّتابـع دون انقطاع، قال الجوهـريّ: «يقال ولدت فلانة ثلاثـة بنين على ساق واحدة، أي بعضهم على إثر بعض، ليست بينهم جارية..»

أمّا في الاصطـلاح فتتألّف كلمة سياق (Context) من السابقـة (Con) وتعني المشاركة، و(Text) وتعني النّصّ، وعليه فكلمـة (Context) هي (مـع النّص)، أو (مصاحبـات النّصّ)، وفي هـذا المصطلح اعتراف بوجـود حقيقتين، وهمـا النّص بوصفـه منظومة لغوية، ومصاحبـات للنصّ بوصفهـا العناصـر المحيطة بهذه المنظومة اللغويـة، قال ستيفان أولمان (S.Ullmann): «إنّ السيـاق علـى هـذا التفسـير ينبغـي أن يشمـل –لا الكلمات والجمل الحقيقيـة السّابقة واللاحقة فحسب– بـل والقطعة كلّها والكتاب كلّه، كما ينبغي أن يشمل بوجه مـن الوجوه كلّ ما يتّصل بالكلمة من ظروف وملابسات. والعناصـر اللغوية المتعلّقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن»[1].

إنّ السيـاق هو «المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغويـة، سواء أكانت كلمة أو جملة في إطار من العناصر اللغويـة أو غـير اللغويـة»[2]. فالسيـاق هـو نصٌّ آخـر مصاحـب للنّص الظاهـر للقرّاء، وهـو عنصر مهمّ في توجيه الـدّلالات، واكتشاف المعاني، التي تتميّز بالحركة والتفلّت والتغيّر المستمر.

وأيّ دعوة للاكتفاء بالدّلالة المعجمية وحدها، بمعزل عـن موقعها داخل الخطاب، أو عن ظـروف إنتاجها هي دعـوة غير علميـة، ومخالفـة لطبيعة الـكلام البشريّ. يقول ستيفان أولمان «إنّ الذين ينادون بهذه الآراء ينسون الفـرق الأساسي بـين الكلام واللغة، وهـذا الفرق يتمثّل في أنّ السّياقـات إنّمـا تكون في المواقـف الفعلية للكلام، وغنـيّ عن البيان حينئذ أنّ معـاني الكلمات المخزونة في أذهـان المتكلّمين والسّامعين لا تحظـى بالدّقة والتحديد إلاّ حـين تضمّهـا التراكيـب الحقيقـة المنطوقـة.. ولكن عـدم وضوح الفرق بين الكلام واللغـة قد عاق كثيراً من العلماء عن منح الكلمات المفردة نصيبها من الاستقلال الذي تستحقه»[3]. فلا مجال لاكتشاف المعاني الحقيقية للكلمات خارج دائرة الاستعمال.

السّياق في التراث العربي:

لقـد انتبه الدّارسون العرب في وقت مبكّر إلى أهميّة السّياق في توجيه الدّلالات واكتشاف المعاني، فنجد الكثير مـن العلماء لا يُقْدِمُ على تفكيك مفهومٍ من المفاهيم قبل

(1) ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة ترجمة كمال بِشْر ص57.
(2) ردة الله بن ردة الطلحي: دلالة السياق، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1424هـ، ط1 ص51.
(3) ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة ترجمة كمال بِشْر ص57.

أن يتناول بالتّحليل شروط إنتاجه، وظروف إنشائه. ويمكننا أن نلمس ذلك بوضوح في بيئتين رئيسيتين؛ بيئة علماء الأصول، وبيئة علماء اللغة.

1 - بيئة الأصوليين:

إنّ تعامل علماء أصول الفقه مع الخطاب الشّرعي، أكسبهم وعياً كبيراً بخطورة المعنى وأهميته، فهم يعتبرون أنفسهم يتحمّلون مسؤولية صياغة الأحكام وتبليغها للنّاس انطلاقاً من القرآن والسّنة وباقي مصادر التشريع، حتى أطلق عليهم ابن القيم لقب (الموقّعين عن ربّ العالمين) [1]، ولذلك تميّزت نظرتهم إلى الخطاب الشّرعي بالكثير من الدّقة والتحرّي، والنظر المتواصل والعميق في سياقاته المختلفة، واعتبروا ذلك شرطاً أساسياً لاستنباط الأحكام، يقول ابن القيم: «السّياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوّع الدّلالة، وهذا من أعظم القرائن الدّالة على مراد المتكلّم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته فانظر إلى قوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدّخان:214) [2] كيف نجد سياقه يدلّ على أنّه الذليل الحقير»[3].

فتفسير الخطاب الدّيني يستلزم من وجهة نظر الأصوليين استحضار كافة القرائن التي يمكنها الإسهام في توجيه المعنى، وذلك انطلاقاً من قاعدة أنّ الخطاب -قرآناً أو حديثاً- ظنيُّ الدّلالة غالباً، فنحن أمام نوعين من الخطاب؛ خطاب احتمالي، وخطاب غير احتمالي (نص) مثلما قال الغزالي: «إن كان نصاً لا يَحتمِل؛ كَفَى معرفةُ اللغةِ، وإن تطرق إليه الاحتمال؛ فلا يُعرف المرادُ منه حقيقةً إلا بانضمام قرينةٍ إلى اللفظ»[4]، وقد فصّل علماء الأصول في ذكر السّياقات التي تتحكّم في دلالات الخطاب تحت مصطلح (القرائن المرجّحة)، وهي عندهم «إمّا لفظية، وإمّا سياقية، وإمّا خارجية»[5].

أوّلا- القرينة اللفظية:

وهي التي ترجّح المعنى المحتمل من داخل البنية اللغوية محلِّ الإشكال، ويمثّل الأصوليون لذلك بلفظة (قرء) الواردة في قوله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: 228)، فهي لفظة تحتمل في اللغة معنى الحيض والطهر، لكّن اختلاف جنس العدد عن المعدود قرينةٌ لفظية ترجّح المعنى الثاني، يقول الشريف التّلمساني: «الأطهار مذكّرةٌ؛ فيجب ذكر التّاء في العدد المضاف إليها، فيقال: ثلاثة أطهار، والحيض مؤنّثة؛ فيجب حذف التاء من العدد المضاف إليها، فيقال: ثلاثُ حِيَض، ولمّا قال الله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوَءٍ﴾ بالتّاء، علمنا أنّه أراد الأطهارَ»[6].

ثانيًا- القرينة السّياقية:

تنقسم القرينة السّياقية إلى نصية وحالية، يريدون بالقرينة النّصية علاقة النص بالوحدات النّصية القريبة منه، حيث تخضع دلالة النّص للتوجيهات الدّلالية للمركّبات المجاورة لها[7]، مثاله قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ (الأحزاب:50)، يدلّ على جواز عقد النّكاح بلفظ الهبة، لكنه تعبير يحتمل أن يكون خاصًّا بالنبي ﷺ، كما يحتمل أن يكون عاما لأمّته، فجاء تمام الآية مرجّحا لخصوصية ذلك بالنبي ﷺ: ﴿خَالِصَةً

(1) وذلك في كتابه الأصولي الشّهير (إعلام الموقّعين عن ربّ العالمين).
(2) الخطاب في الآية موجّه لإبليس، وسياق الآية: ﴿إنّ شجرة الزّقوم طعام الأثيم كالمهل تغلي في البطون كغلي الحميم خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ (الدخان: 214).
(3) ابن القيم: بدائع الفوائد (222/4).
(4) الغزالي: المستصفى من علم الأصول ص185
(5) الشريف التّلمساني: مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ص56.
(6) المرجع نفسه ص56.
(7) د.عبد الكريم بكري: فصول في اللغة والأدب ص7.

لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأحزاب:50).

أمّا القرينة الحالية فيراد بها المرجّحات المصاحبة للخطاب، لأنّ «أمر الدّلالة لا يحمله الخطاب كنسق لغويّ، وإنّما مردّه إلى الطبيعة الإنتاجية التي يحوّل عبرها القارئ خطاب النّص إلى خطاب ذي مقاصد دلالية»[1]، ومثاله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ (المرسلات:29--30-28-31)، فالمقصود من الظلّ في هذا السّياق هو لهب جهنّم، وجرى استعمال كلمة ظل على سبيل التهكّم، فالخطاب في النهاية وليد تفاعلات شخصية واجتماعية وأدبية معقّدة، ومن واجب القارئ أن يعتبر كلّ ذلك في الحسبان[2].

ثالثًا- القرينة الخارجية:

هي أداة ترجيح معنى من المعاني غير المتضمّنة في الخطاب موضع الإشكال، ولكنها تستفاد من خطابات أخرى، وعرّفها الأصوليون بأنّها «موافقةُ أحد المعنيين لدليلٍ منفصلٍ، من نص، أو قياس، أو عمل[3].

مثال النص: تفسير العدّة في قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ (الطّلاق:1)، فهي تعني الطّهر والحيض، لكنّ الأحناف اعتبروا العِدَّةَ ثلاث حيضات بقرينة نصية خارجية، وهي قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ (الطّلاق:4)، فجعل عدة المرأة التي لا تحيض ثلاثة أشهر، بدلا عن الحيض، ممّا دلّ على أن الحيض هو الأصل في حساب العدة وليس الطّهر، ففسّرت الآية السابقة.

مثال القياس: تفسير المالكية لمعنى العدّة الوارد في الآية السابقة انطلاقا من القياس، فاعتبروا أنّ العِدّة لمّا كان مأمورًا بها كانت عبادة، وبالقياس على الصلاة والصيام والطّواف –وهي عبادات كلّها– لا يجوز التعبد بالحيض، ولذا وجب حمل المعنى على الطّهر.

مثال العمل: قوله ﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[4]، في بيان صفة الصلاة، وقوله ﷺ: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»[5]، في بيان صفة الحج، وهذه أحسن أنواع القرائن، لأنّ «البيان بالفعل أدلُّ على الصّفة، وأوقعُ في الفهم من الصفة بالقول، لِمَا في المشاهدة من المزيد عن الأخبار»[6].

فالأصوليون نظروا إلى الخطاب الشّرعي بوصفه بنية نصية متكاملة، لا يعتبرون الجملة هي الوحدة الأساسية المهيمنة فيه، ولكنهم يتحدّثون عن النّص بصورة أكثر حداثة، يرتبط أوله بآخره، ويفسّر بعضه بعضا، إنّهم يقتربون كثيرا مما يسمّيه المعاصرون علم النص (Science du texte)، ومن ثَمَّ فإنّ فهم الخطاب يكون محتاجا إلى إدراك مكوّناته كافة، وليس بالاقتصار على نظرة مجتزأة تكتفي بمحلِّ الشاهد بعيدا عن السياقات الداخلية والخارجية. لذلك يغدو من الضروري الاستعانة على فهم النص بكافة المكوّنات التي تشكّل بيئة الخطاب، ومنها تفسير النصّ بالنص نفسه، مثلما نلمس ذلك عند المفسرين الذين جعلوا تفسير القرآن بالقرآن أصل التفاسير[7].

2 - بيئة اللغويين:

لقد شكّل السّياق حجر الزّاوية في الدّراسات اللغوية العربية، فحظي هذا المكّون بأهمية بالغة لدى المعجميين

(1) د.عبد الجليل منقور: التأويل ومقصدية الخطاب، مجلة قراءات، جامعة معسكر العدد الأول ص49.
(2) د.عبد الكريم بكري: فصول في اللغة والأدب ص8-9.
(3) الشريف التلمساني: مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ص57.

(4) أخرجه البخاري ومسلم
(5) أخرجه مسلم
(6) ابن قدامة: روضة الناظر وجُنة المُناظر ص185.
(7) فيفسرون –مثلا– الإنعام قوله تعالى:﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(الفاتحة: 7)، بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ (مريم: 58).

والنحاة والبلاغيين وغيرهم، الذين كانوا مدركين لأهمية ظروف إنشاء الخطاب في فهم الخطاب، وفي تشكيله أيضاً. وقد ظلّ البلاغيون يردّدون عبارتهم الشهيرة (لكلّ مقام مقال)، إدراكاً منهم بدور العوامل غير اللغوية في بلورة خطاب لغوي قادر على الوصول إلى المتلقين باليسر المطلوب والدّقة المرغوبة، حتى اختصروا مفهوم البلاغة في كلمة (المقام)، وقال قائلهم «البلاغة هي مطابقة الكلام الفصيح لما يقتضيه الحال»[1].

ووعياً من الجاحظ شيخ البلاغة العربية بأهمية التّناغم بين الخطاب اللغوي وسياقه الاجتماعي دعا في عبارته الشّهيرة إلى تشكيل خطاب لغويّ يراعي أحوال المخاطبين وقدراتهم ومنزلتهم الاجتماعية، فقال: «جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وأن لا يُكلّم سيّد الأمّة بكلام الأمّة، ولا الملوك بكلام السّوقة، ومدار الأمر على إفهام كلّ قومٍ بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم»[2]، فالبلاغة هي القدرة على تحرير المعنى من عقال البنية الشكلية للغة، بصياغة خطاب تواصليّ، إفهامي، وهذا ما لا يمكن تحقيقه بعيداً عن مراعاة سياق التخاطب، الذي يحصره الجاحظ في أحوال المخاطبين ومقاماتهم.

نظرية السّياق:

في خضم المحاولات العلمية المتلاحقة لاستكشاف المعنى ظهرت النظرية السياقية (Contextuel Theory) بوصفها إحدى المحاولات الجادّة للبحث في معنى المعنى، وآليات تحوّله، وكان زعيم هذا الاتجاه العالم البريطاني فيرث (Firth) الذي اعتبر المعنى «مجموعة مركّبة من العلائق السّياقية، وعلى الدّراسة الفونولوجية، والتركيبية، والمعجمية، والدّلالية أن تعالج مكوّنات هذه المجموعة في إطار سياقها المناسب، فالدّراسة الدّلالية حسب مفهومه ينبغي لها أن تربط الملفوظات اللسانية بسياقها الموقفي الذي تنتج فيه بالفعل»[3]، فالمفردة الواحدة قد تحمل عدداً هائلاً من المدلولات بحسب السّياقات التي تنتمي إليها هذه المفردة، وعليه يظلّ السّياق هو الوحيد الكفيل بتحديد المدلول المراد، يقول أحمد حساني: «التفسير الدّلالي في ظل النّظرية السّياقية ينبني مبدئياً على حصر السّياقات المختلفة التي يظهر فيها عادة العنصر اللساني بوصفه مدخلاً معجمياً غير ثابت، يتغير بتغير المواقف، والسّياقات المختلفة التي يرد فيها، سواء أكانت هذه السّياقات لسانية أم غير لسانية»[4].

لقد صرّح فيرث بأنّ المعنى لا ينكشف إلاّ من خلال تسييق الوحدة اللغوية[5]، لأنّ السّياق وحده هو الذي يحرّر المفردات من أغلالها المعجمية، ويضيف إليها مفاهيم جديدة تسمح بتحديد دقيقٍ لدلالاتها. وضمن هذا الإطار صنّف رواد هذه النّظرية السياقات والمواقف التي تشارك في إنتاج المعنى كما يأتي:

1 - السياق اللغوي (Linguistic Context):

يعرّف السياق اللغويّ بأنّه كلّ ما يتعلّق بالإطار الدّاخليّ للغة، وما يحتويه من قرائن تساعد على كشف دلالة الوحدة اللغوية الوظيفية، ضمن البناء العام للنّص، وهذا الأمر يتطلّب العودة إلى نظم اللغة الصوتية، والصّرفية، والتركيبية، والمعجميّة، والدّلاليّة، للوقوف على ذات الكلمة وماهيتها[6]، نحو قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (النّمل:01)، فالدّلالة الزمنية للفعل ﴿أَتَى﴾ تحيل على الماضي، أما دلالته داخل سياق الآية فتنفتح على الاستقبال.

(1) أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة ص27.
(2) الجاحظ: البيان والتبيين (81/1).
(3) أحمد حساني: مباحث في اللسانيات ص154.
(4) المرجع نفسه ص154.
(5) أحمد مختار عمر: علم الدّلالة ص68.
(6) عبد القادر عبد الجليل: علم اللسانيات الحديثة ص542.

ويمثّل أحمد مختار عمر للسّياق اللغويّ بلفظة (يد) التي تتغيّر معانيها تبعاً للاستعمالات التي تَرِدُ فيها:

أ-هم (يدٌ) على من سواهم: إذا كان أمرهم واحداً.

ب-(يَدُ) الفأس: مقبضها

ج-(يَدُ) الدّهر: مدّ زمانه.

د-(يَدُ) الرّيح: سلطانها.

هـ-(يَدُ) الطّائر: جناحه.

و-بايعته (يَدًا) بيد: أي نقداً.

ز-ثوبٌ قصير (اليَدِ): إذا كان يقصر أن يلتحف به.

ح-فلانٌ طويلُ (اليَدِ): إذا كان سمحاً.

ط-سقط في (يَدِهِ): ندم.

ي-حتى يعطوا الجزية عن (يَدٍ): عن ذلٍّ واعتراف للمسلمين بعلوّ أيديهم.

ك-إنّ بين (يَدَيّ) السّاعة أهوالاً: أي قدّامها.

ل-(يَدُ) الرّجل: جماعة أنصاره وقومه[1].

فالملاحظ أنّ المدخل المعجمي المتمثّل في مفردة (يد) تختلف دلالياً تبعاً لموضع تواجدها في السياق اللغويّ، وهذا الأمر ينطبق على معظم المداخل المعجميّة التي تشكّل الرصيد المعجميّ العربيّ، ولهذا نقول دائماً: أعطني النّص الذي وجدت فيه الكلمة، أُعطِك معناها.

2 - السياق العاطفي (Emotional Context):

هو المحدّد لدرجة القوة والضعف في الانفعال، ممّا يقتضي تأكيداً أو مبالغةً أو اعتدالاً، فقد تشترك وحدتان لغويتان في أصل المعنى المعجميّ، لكنّ السّياق العاطفيّ يؤثّر على أصلهما الدّلالي، ويضيف إليه درجة انفعالية معيّنة، مثل كلمتي (يكره) و(يبغض)، فإنّ في البغضاء قساوةً وقوّةً عاطفيّة لا نجدها في الكراهيّة، ومثله في اللغة الإنجليزية كلمتا (love) و(like) فإنّ كلاً منهما تحمل قيماً انفعالية تختلف عن الأخرى، رغم اشتراكهما في أصل المعنى وهو (الحب).

3 - سياق الموقف (Situational Context):

ونعني به الإطار الخارجيّ الذي يحيط بالإنتاج الفعليّ للكلام في المجتمع اللغوي[2]، فظروف إنتاج الكلام تسهم بشكل مباشر في تحديد المعنى المقصود، ويمكننا التمثيل لذلك بكلمة (عملية) التي يمكن تفسيرها بحسب الموقف الاجتماعي الذي تطلق فيه، فتعني العملية في سياق موقف تعليمي إجراء عملية حسابية من جمع أو طرح أو ضرب، وفي السّياق الطبّي يقصد بها عملية جراحية لمريض معيّن، أمّا القيام بعملية في سياق الموقف العسكريّ فيعني تنفيذ خطّة عسكريّة ما.

4 - السّياق الثقافي (Cultural Context):

ويمثّل القيم الثقافية والاجتماعية التي تحيط بالكلمة، التي تأخذ ضمنه دلالاتها المحدّدة لها، حيث يختلف المفهوم الذهني للمفردات باختلاف المرجعية الثقافية التي ينتمي إليها المتكلّم، فيُطلَقُ على زوجة الرّجل مثلا حَرَمُه وعقيلتُه وقرينتُه وامرأتُه.. وخلف كلّ اسمٍ من هذه الأسماء مرجعيّة ثقافية تدلّ على مكانة مستخدم اللغة، ومثال ذلك أيضاً كلمة (جذر) التي تعني في الرّياضيات معنى غير الذي تعنيه في مجال الزراعة، وتعني في مجال الدّراسات اللغوية معنى ثالث يختلف عن المعنيين السّابقين، واحترام هذه المحدّدات ضروريّ في عمليّة التواصل.

وأيّد جون لاينز (J.Lyons) جهود فيرث فاعتبر السّياق مسؤولا عن تحديد معاني الوحدات الكلامية، قائلاً «معنى الوحدة الكلامية يتجاوز ما يُقال»[3]، متحدّثاً في دراسته عن ناحيتين أساسيتين تشكّلان السّياق، وهما

(1) أحمد مختار عمر: علم الدّلالة ص70.

(2) أحمد حساني: مباحث في اللسانيات ص158.

(3) جون لاينز: اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب ص222.

«النّاحية الكلامية والنّاحية اللاكلاميّة»[1]، وضرب لذلك مثالاً بجملة «اجلس» التي قد تدلّ على الأمر (الإلزام) أو مجرّد الإذن بالجلوس، تبعاً لمكانة الشخص وأهليته لإصدار الأوامر، «حيث يمكن التنبّؤ في أغلب الأحيان عن ظهور وحدة كلامية ذات قوّة لا كلامية معيّنة، وذلك عن طريق الموقف المحدّد اجتماعياً الذي تعتبر الوحدة الكلامية جزءًا منه»[2].

ويعتقد لاينز أنّ الغموض يضفي حيوية على النصوص الأدبية، لأنّ التّردّد في تفسير الوحدات الكلامية يُحمِّل القارئ مسؤولية عظمى، «حيث يتوقّع أن يَحْمِلَ القارئ في ذهنه تفسيرين أو أكثر في وقت واحد، وهو إمّا أن يتردّد بين هذه التّفسيرات أو يجمع بينها بطريقة ما؛ ليكوِّن تفسيراً مركّباً غنيًّا»[3]، فعندما نقرأ لشعراء التصوّف أمثال رابعة العدويّة أو العفيف التلمساني قصائد في الحب والعشق والسُّكْر وغيرها من معاني العربدة سنجد أنفسنا مجبرين بقوة السّياق إلى تأويل تلك المعاني، والعدول عنها إلى معانٍ أخرى كحبّ الله، والقرب منه، والفناء فيه، وغيرها من القيم التي تقوم عليها التّجربة الصّوفية.

ويعتبر فصل اللغات عن سياقاتها الثقافية من أعظم العوائق التي تواجه المتعلّمين، خصوصاً في مجال اللغات الأجنبيّة، فلكلّ لغة خصوصية ثقافية تمنع الترجمة الحرفيّة، وتدعو إلى التّرجمة السّياقية، فَقَوْلُنَا فلانٌ (يشرب) الدّخان مثلا لا يمكن أن نترجمها إلى لغة أخرى بشكلٍ حرفيٍّ ما لم نحترم السّياق، وكذلك الشّأن بالنّسبة لكلمة (الفول السوداني) وهي (Peanuts) بالإنجليزية، و(cacahuètes) بالفرنسية، لكنّ ترجمتها الحرفية إلى أي لغة أجنبية أخرى سيفسد دلالة الكلمة، وكذلك الكلمة الفرنسية (Pomme de terre) وهي (البطاطا)، فإن لم يتم وضع السّياق الثقافي الذي نشأت فيه اللفظة في الحسبان وجدنا أنفسنا أمام دلالة مشوّهة مستوحاة من الترجمة الحرفية للكلمة وهي (تفّاح الأرض)[4].

إنّ تعامل النظريّة السّياقية مع المعنى بوصفه شبكة علائقية مرتبطة بجملة من الظروف والسّياقات مكّننا من الوصول إلى مقاربة علمية لسانية لقضايا المعنى، فقد استطاع البحث السّياقي أن يحدّد بدقّة الحمولة الدّلالية للكلمات داخل شبكة التخاطب بتفعيل منظومة السّياقات المحيطة بها، يقول أولمان: «إنّ نظريّة السّياق –إذا طُبِّقت بحكمة– تمثل حجر الأساس في علم المعنى، وقد قادت بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في هذا الشأن. إنّها مثلا قد أحدثت ثورة في طرق التّحليل الأدبي، ومكّنت الدّراسة التاريخية للمعنى من الاستناد إلى أسس حديثة أكثر ثباتاً، كما أنّها قدّمت لنا وسائل فنيّة حديثة لتحديد معانيّ الكلمات»[5].

لقد أعادت النّظريّة السّياقية الاعتبار للدّلالة ضمن إطارها الطبيعي، وهو ظروف التّكلّم وشروط إنتاج الكلام، فأعادت الرّوح لمفاهيم غيّبتها النظريات السّابقة، ولم تحظ إلاّ بفرصة هامشية في التّحليل الدلالي في النظريات الأخرى، فجرى الحديث عن المقام، والسّياق، والموقف، وطريقة الحديث، وزمن التكلّم، وهي مفاهيم إجرائية تلقفتّها التداولية فيما بعد، وتأسست على ضوئها نظرية متكاملة استفادت من إرث النظريّة السياقية، والبلاغة القديمة.

وظيفة السّياق في الفكر التداولي الحديث:

تمثّل التداولية (Pragmatics) مرحلة متطوّرة من مراحل الدّرس اللغويّ، فإذا كان اللسانيات تقف على أعتاب البنية اللغوية لا تتجاوزها، فإنّ مهمة التداوليّة

(1) المرجع نفسه ص222.
(2) المرجع نفسه ص227.
(3) المرجع نفسه ص224.
(4) حبيب بوزوادة: علم الدّلالة التأصيل والتفصيل ص115.
(5) ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة ص61.

أن تتجاوز ذلك إلى تحليل الأبعاد الحقيقية لتلك البنية اللغوية المغلقة، ببحث الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية لكلّ من المتكلّم والمخاطَب والجماعة اللغوية التي يجريّ ضمنها التواصل، يقول منذر عيّاشي: «وأمّا اللسانيات التداولية فترى أنّ الدّلالة نسق من المعاني، يحتكم إلى سياق التعبير ويرتبط به»[1]، إنّها نظرية تعنى بدراسة اللغة في علاقتها بمستعمليها، حيث تتحوّل الكلمات إلى أفعال، والمعاني إلى وظائف واستخدامات. فالتداوليّ لا يفهم من عبارة (هل لديك قلم؟) معناها الحرفيّ، ولكنّه يفسّرها تفسيراً وظيفياً إنجازياً، مبنياً على تفسير سياقيّ، مستوحى من مقام التلفّظ، وظروفه الزمكانية، وعليه فالمعنى التداولي ههنا هو طلب استعارة القلم، «إنّ مدلول القصد جزء من دلالة النّص، وليس جزءا من دلالة الكلمة، ولذا فإنّ أيّ نصٍّ يخلو من القصد لا يرقى إلى مرتبة الخطاب، وبالتّالي لا يقوى أن يحافظ على انسجامه الدّاخليّ، أو على منطقه الذاتيّ، وسيفقد في النتيجة توجّهه الإيصالي»[2].

ويعتبر المكوّن التداوليّ أحد المكوّنات الرئيسة للإحاطة بأيّة لغة كما نصّ على ذلك الفيلسوف الأمريكي شارل موريس (C.Morris) الذي ميّز بين مجالات ثلاثة في دراسة أي لغة[3]:

المجال التركيبي: الذي يعنى بعلاقة العلامات اللسانية فيما بينها.

المجال الدلالي: ويبحث في علاقة المعاني بالأشياء.

المجال التّداولي: ويهتم بالعلاقات القائمة بين العلامات اللسانية ومستعمليها واستعمالها وآثارها، في إطار الشبكة السّياقية بمفهومها الشامل، (السياق الثقافي والنفسي والاجتماعي..).

فالمعنى من وجهة نظرٍ تداوليةٍ يتجاوز المتصوّر الذهني الذي تقرّره المعاجم اللغوية، إنّه الجانب المفهومي الذي تتواضع عليه الجماعة اللغوية، في إطار اتفاقها الضّمني بين المتكلّمين والمخاطبين، على أساسٍ من العقد اللغوي، بقصد تحقيق التّفاهم بين عناصر التخاطب. ولهذا يصبح من الضروريّ مراعاة الشروط الواجب توفّرها في عمليّة التّخاطب، وهي التي أطلق عليها دومينيك مانقونو (D.Maingueneau) مقوّمات السّياق، وذكر منها المشاركين (كتّاب، باعة، تلاميذ..)، والمكان، والزمان، والغاية، ونوع الخطاب، والقناة، واللهجة المستعملة، والقواعد التي تحكم التّداول على الكلام في صلب جماعة معيّنة[4]، فقولنا لشخصٍ ماً (تفضّل مع السّلامة) تعني الترحيب والمجاملة، كما قد تعني الطّرد والإهانة.. ولا يمكن تحديد دلالتها بوضوح تامٍ إلا بوضع الوحدة اللغوية ضمن سياقها التداوليّ الخاصّ بها.

ومن الأمثلة التي توضّح تأثير مقوّمات السّياق التي ذكرها مانقونو قول شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا (1912م- 1976م) لجنود الاحتلال الفرنسي:

زوروا هناك –مكّرمين- خطوطها

وتسلّقوا متفسّحين جبالها

وتوزّعوا بسهولها وشعابها

وتفيّؤوا متنعّمين ظلالها

فدعوة الشّاعر الثّائر لجنود الاحتلال بالسّياحة في أرض الجزائر، والتمتّع بجمال طبيعتها، لا يمكن أن يكون مقصوداً، لوجود موانع سياقية ترفض هذه المعاني المرحّبة، فالعداوة المستحكمة بين الجزائريين والمحتلّ الفرنسي تلغي كلّ الدّلالات الإيجابية التي تحملها هذه الدّعوة وتحيّلها إلى معانٍ مفعمة بالاحتقان والتوتّر،

(1) منذر عياشي: اللسانيات والدّلالة ص88.
(2) المرجع نفسه ص80.
(3) دومينيك مانقونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ترجمة د.محمد يحياتن ص92

(4) المرجع نفسه ص25-26.

فيغدو التفيؤ احتراقاً، والتمتّع معاناة، والظّلال سعيراً، والتكريم مقاومة[1].

فالسّياق يمثّل ركناً ركيناً في تحديد الغايات التداولية من عملية التخاطب، «فالفعل الكلاميّ لا يعبّر عنه بواسطة الجملة فقط، ولكن يعبّر عنه في سياق معيّن وفق المعادلة التالية: قول+سياق=رسالة»[2]، وعليه يعتبر الإلمام بقواعد اللغة وحدها غير كافٍ لاستكشافِ المعنى، والتوصّلِ إلى غاياتِه التواصليّة. إنّنا بحاجة إلى معرفة أخرى تعضد المعرفة اللغوية، معرفة تقدّم الفائدة المرجوّة لتحليل شروط التّخاطب، وسياقاته المختلفة.

وقد أدّى الفرز بين الجملة والكلام إلى فرزٍ آخر على مستوى آليات البحث والقراءة؛ فالتّداولية تتعامل مع معنى الكلام، بينما يتعامل علم الدلالة مع معنى الجملة[3]. فعلى سبيل المثال؛ عندما يقول المسؤول للموظّف الذي جاء إلى عمله متأخراً (الحمد لله على السلامة)، فإنّه لا يقصد أبداً تهنئته أو مجاملته كما توحي بذلك الجملة في دلالتها الأساسية، ولكنه يريد التوبيخ والتقريع كما يشير إلى ذلك سياق الحال، وهنا تنتقل جملة (الحمد لله على السلامة) من كونها قولاً إلى كونها رسالة بتدخّل من السّياق.

والنّظريّة التداوليّة تنظر إلى اللغة من جهة الوظيفة لا من جهة الماهيّة، إنّها تعتبر اللغة نظاماً تواصليًا غايته الأساسية هي إحداث تحوّلٍ ما لدى المخاطبين، بغضّ النظر عمّا إذا كان التحوّل على مستوى الفعل أو على مستوى القناعة. وهو ما ألحّ عليه جورج مولينيه (G.Molinié)، عندما ربط المعنى بتأثيرات الأفعال الكلامية، ورأى بأنّ دلالاتها إمّا تحقيقية أو تأثيرية، يقول «يكون تحقيقياً كلّ إنتاج كلاميّ يهدف إلى إنشاء موقف اجتماعيّ، ويكون تأثيريًّا كلّ إنتاج كلاميّ يحقّق فعليًّا - وبعمليّة إنتاج الكلام ذاته- تغييراً في الواقع غير اللغويّ»[4].

الخاتمة :

تؤكّد هذه الدّراسة على أهميّة المعنى، بوصفه روح اللغة، فهو الحقيقة الثاوية في كلّ نظام لغويّ، إنّه الجزء الأكثر حساسية في إستراتيجية التواصل البشريّ، ولهذا السبب يعدّ إدراك المعاني، وتفسيرها، تحديّاً لغوياً وسيميولوجياً، يتطلّب الاستفادة من كلّ أدوات التحليل، وآليات التأويل.

إنّنا لا نستطيع أن نمارس الانتقائية المنهاجية في سبيل البحث عن المعنى، فنحن مطالبون بتوظيف كلّ إمكاناتنا القرائية للوصول إليه، لا نفرّق بين المعنى الذي أراده المتكلّم حينما تلفّظ به أول مرة، وبين المعنى الممكن الذي تبرّره الاستراتيجيات القرائية الحديثة. ولهذا السبب تغدو كلّ الوسائل التي تقرّب القارئ من المعنى مشروعةً وصالحة، لا يهمّ إذا كانت تستفيد من اللسانيات، أو السيميائيات، أو التداوليات أو غيرها من المناهج، لا فرق بينها إلاّ بالقدر الذي يجعلنا قريبين من المعنى، بناءً على القرائن والسّياقات التي تعضد هذا الموقف أو ذاك.

وبالحديث عن السّياق؛ فإنّنا نكون قد فتحنا نافذة قادرة على الإطلالة على المعنى عن قرب، ذلك أنّ السّياق مثلما تؤكّده النظريات اللسانية القديمة والحديثة على حدٍّ سواء هو الطريق إلى المعنى، والسبيل السّهل الذي يسمح بالتعرّف على البنية المفهومية للخطاب ضمن دائرة الاستعمال، التي تعدّ أقوى أدوات التّفسير والتأويل.

ولهذا السبب نعتقد أنّ السياق هو مفتاح اللغة، إنّه سلطة لغوية أحياناً، وسلطة فوق لغوية أحياناً كثيرة، وذلك لحضوره الدّائم على مستوى الخطاب، وعلى مستوى ظروف التخاطب أيضاً، وهو ما يفرض على القارئ ضرورة العودة إليه، كقوة قادرة بكفاءة عالية على تفسير أي نظام لغويّ، مهما كانت طبيعته؛ دينية، أو تاريخية، أو أدبية، أو غيرها.

(1) عبد الكريم بكريّ: فصول في اللغة والأدب ص8-9.
(2) عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر ص101.
(3) صلاح الدين حسنين: الدلالة والنحو ص192.
(4) جورج مولينيه: الأسلوبيّة ترجمة بسام بركة ص156.

إنّ السياق يمنحنا المؤشرات التي تسمح بتوجيه القراءة، وضبط المفاهيم، ومن ثَمَّ يمنحنا الوسائل العلمية الكفيلة بالوصول إلى قراءة سليمة وممنهجة وأقرب إلى الموضوعية، ولهذا السّبب ظلَّ السياقُ باعتباره آليةَ قراءةٍ وتحليلٍ حاضراً في كلّ المنهاجيات التي بحثت في قضايا الدّلالة، فهو ركنٌ ركين في الموروث العربي، عند البلاغيين، والأصوليين، والمفسرين، والمعجميين، وغيرهم، كما احتلّ في اللسانيات الغربية موقعاً مهمًّا، خصوصاً في نظرية (فيرث) السياقية، أمّا بالنسبة للنظرية التداولية، فإنّ السّياق اتّخذ فيها موقعاً مهمًّا بسبب طبيعة النظريّة نفسها، التي تتحدّد مهمّتها في دراسة اللغة ضمن بيئة التّخاطب، هذه البيئة التي تتحكّم في طبيعة الخطاب من حيث تشكيله ووظيفته.

قائمة المصادر والمراجع :

- الأخضري (عبد الرّحمن)، شرح السلّم، تحقيق عمر فاروق الطّباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 1430هـ- 2009م.
- أولمان (ستيفن): دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بِشْر، مكتبة الشباب، القاهرة، دت.
- بكري (عبد الكريم)، فصول في اللغة والأدب، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، دت.
- بوزوادة (حبيب)، علم الدّلالة، التأصيل والتفصيل، دار الرشاد، الجزائر، 2008.
- التّلمساني (الشريف)، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، مؤسسة الرّسالة ناشرون، بيروت، ط1، 1429هـ- 2008م.
- حساني (أحمد): مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1999م.
- حسنين (صلاح الدين)، الدلالة والنحو، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، دت.
- السّيوطي (جلال الدّين): الإتقان في علوم القرآن، مكتبة مصر، دت.
- عبد الجليل (عبد القادر)، علم اللسانيات الحديثة، دار صفاء، عمّان، الأردن، ط1، 1422هـ- 2002م.
- عشير (عبد السلام) عندما نتواصل نغيّر مقاربة تداوليّة معرفيّة لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2012م.
- عمر (أحمد مختار)، علم الدّلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1998م.
- عياشي (منذر)، اللسانيات والدّلالة، مركز الإنماء الحضاريّ، سورية، ط2، 2007م.
- ابن قدامة: روضة الناظر وجُنة المُناظر، الدّار السلفيّة، الجزائر، ط1، 1991م.
- ابن القيم (شمس الدّين) بدائع الفوائد، تحقيق أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م.
- لاينز (جون)، اللغة والمعنى والسّياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987م.
- مانقونو (دومينيك): المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ترجمة د.محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2005م.
- مفتاح (محمد)، المفاهيم معالم، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط1، 1999م.
- منقور (عبد الجليل)، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010م.
- منقور (عبد الجليل)، التأويل ومقصدية الخطاب، مجلة قراءات، جامعة معسكر العدد الأول، 2008م.
- مولينيه (جورج)، الأسلوبية، ترجمة بسام بركة، المؤسسة الجامعيّة للدّراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1427هـ- 2006م.
- الهاشمي (أحمد)، جواهر البلاغة، دار ابن الجوزي، القاهرة، 1431هـ- 2010م.